تلك القصيدة كانت « معلقة توفيق صايغ » . ففي الاشهر التي مرت بين الكتاب السابق وبين كتابة « المعلقة » ، وجد توفيق انه ما زال في قبضة تلك الهواجس التي يلذها ويخشاها معا ، والتي ما انفكت تمثل حبه العنيف النازف ، مهما حاول ان يداجي او يتهرب . كانت وفاة والدة الشاعر قبل ذلك بعشر سنوات هزة كبرى في حياته . وكان انصرافه عن هذه المرأة التي أراد أن يرى فيها ، ولكن عبثا، تعويضا عن فقدان امه ، هزة اخرى . وكلتاهما لديه عملية موت وميلاد معا .

وقد قال ذلك بالنص تقريبا في الرابع من تشرين الاول عام ١٩٦٠ ، بعيد صدور « القصيدة ك » : « مرتين في ١٩٥٠ وفي ١٩٦٠ ، كنت على وشك الانتحار دفعة واحدة . آنذاك اجتزت احدى ازمتين في حياتي (لا تضاهيهما الا ازمة الولادة) . في احداهما اقصيت عن النعيم ، وفي الاخرى عن الجحيم . يتحدثون عن فاجعة الفردوس المفقود : الفاجعة لا في انه الفردوس الذي فقد ، بل في الفقدان ذاته ، لفردوس كان او لنار . في ١٩٥٠ وفي ١٩٦٠ لم يكن الجبن الذي صدني ، اخيرا ، عن الانتحار . ولماذا لا انتحر مرة واحدة ؟... الم تكتشف ان في من (من مـــاذا ؟ أجل قلها : من النرطقة ، من الماسوكية ، من الانحراف ؟) ما يجعلني استمرىء الانتحـــار التدريجي البطيء ، اتلذذ ، اتمتع به ، ارتمي عليه ارتماء الرضيع على ثدي ماردة ، والمحب على حبيبة — أفعى ، فلا أود أن أستعجل الشبع الكافي ، ولا اللذعة ، المرهقة — المريحة ، الحاسمـــة ؟ » (راجع : « أنا ... توفيق صـايغ » ، جريدة النهار البيروتية ١٩٦٠/١٠/٤) .

بعد نشر هذا الاعتراف في جريدة « النهار » باسابيع ثلاثة ، كتب الي من لندن يقول : « انا في هذا العام اقل تعاسة مني في العام الماضي . (ك) حاولت مرة واحدة، لكن بشراسة وعنف واستماتة، ان تعود الي كما كنا : ذلك الجزء مني الذي ما زال يذكر الآلام الماضية ، وامكانية العيش بدون (ك) ، وضرورة الانصراف الى الانتاج ، تغلب ليلتها على ذلك الجزء مني الذي ما زال يذكـــر المباهج الماضية ، واستحالة العيش بدون (ك)، وعبث كل انتاج اذا لم تكن هي الى جانبي . تغلب ليلتها ، لكن الى متى سيظل متغلبا ، وهل سيظل متغلبا اذا (وعندما) كررت المحاولة ، أو اذا نفذت تهديدها الذي كررته ست مرات ، بقتلي او بتشويهي ؟ ! لست ادري لست ادري . » لم يتغلب طويلا ، الى ان جاءت « المعلقة » تجسد ، على اروع وارعب ما يستطيع ، تجربة حياته كلها ، فيهيىء له الشعر ثانية منفذا الى بعض من ضياء في نهاية النفق المظلم الطويل .

* * *

ليس من السهل دخول عالم توفيق صايغ الشعري. انه عالم حاول توفيق ان يرسمه بصور من الحياة في المدينة المعاصرة — المدينة الجميلة ، الفاجرة ، المشتهـــاة ، التي يراهـــا تخبىء « الاشباح في الزوايا » وتحتضن تحت المصابيح « عجائز يتمتمن جذلات منجمات » الملأى بكهوف كما يؤوي الفـــم « فراغات وسوسا » . عالم يتحدث بصور من السفر ، والباسبورت والتآشير ، والوشاية ، و« الكلابيج » في المعاصم ، والجماهير المزدحمة، والبغـــاء ، وضرب السياط ، وســـير العـــربات والقطارات ، والوحـــول ، ومشردي الليالي ، وينابيع الدم ، والفراش البارد . والى ذلك كله فانه عالم كثيرا ما يراه الشاعر ايضا بلغة المزامير، بلغة الاناجيل وصورهـــا — تلك الصور المقرونة بحياة المسيح وأمثاله ومواعظه . انه عالم جائر ، جائع ، خائن . فلذا كان المسيح قد خانه « واحد من اثني عشر — واحد من بين الالوف » على حد قول توفيق ، فان الشاعر قد عرف فيه من الخيانة ما هو أشد وأدهى بكثير . وحتى قبل ان نجيء الى « المعلقة » فاننا نحس ان الشاعـــر في ديوانيـــه الاولين قد اقام الصلة وهـــو لا يدري بينه وبين قديسين قدامى — ولا سيما جيروم وأوغسطين . والفارق بينه وبينهما هو ان الواحد كتب رسائله والآخر اعترافاته بعد التجربة ، بعد أن مخر البحار المغتلمة من العشق والضياع وبلغ ميناء الراحة عند قدمي المسيح ، في حين أن الشاعر ضرب عليه ان يمخر بحاره نايا عن ميناء الراحة عند قدمي ذلك الذي تشبه به ، نحو مدن العشق والضياع. ولذا ، بينما كان جيروم وأوغسطين يذكران ايام الخطيئة واللوعة والرعب وهما في حماية المسيح، فان توفيق كتب اعترافاته وهو يكتوي بحسه انه يفقد حماية المسيح، فلا يبقى له ما يصد عنه غوائل العشق والضياع . ولذا فانه في عودة مستمرة الى المسيح ، الى البحث عنه ، الى معاتبته ، الى مقارعته ، الى الصراخ به ذلك الصراخ الايوبي الحائر ، لان الشاعر تعذب من اجله ، ومع هذا لم يلتفت اليه ، بل هرب منه . هكذا يخاطبه :